

المعايير الخلقية في المنهج الأخلاقي في الإسلام

Moral values as part of the code of ethics in Islam

Djamel ARGOUB*

Université Oran1

جمال عرقوب*

جامعة وهران 1

البريد الإلكتروني: Djamel-medine@hotmail.com

ملخص:

تتبع الأخلاق والقيم مكاناً سامقاً، ومزلةً عظيماً في الإسلام، وغُيت الشريعة بتأصيل المنهج الأخلاقي، من خلال تلك الآيات والأحاديث الجامعة لمكارم الأخلاق، والآيات والأحاديث المفردة الخاصة ببعضها، وارتباط الأخلاق الإسلامية بالجوانب العقدية والعبادية والاجتماعية وغيرها، وارتباطها بالمقاصد الشرعية والحكم المرعية، إضافة إلى كثرة أقسامها وتعدد أنواعها، ومما لا شك فيه أن هناك محوراً وزاوية ارتكازاً وبعداً أساسياً يرمي الإسلام العظيم لما وراءه، فالإسلام يُعتبر بمعايير الاقتصاد كالعلة المغطاة برصيد ذهبي، والرصيد الذهبي الذي نقصده هو المعايير الأخلاقية التي يحملها، ومن هنا جاء هذا البحث ليظهر حقيقة هذه المعايير في المنهج الأخلاقي في الإسلام، ويعزز اليقين بكمال هذه الشريعة، وتفردها، وحسن نظامها.

الكلمات المفتاحية: الأخلاق؛ المنهج؛ المعايير؛ الإسلام.

Abstract :

Ethics and moral values are of great importance in Islam. Sharia cared for the establishment of a code of ethics through variety of verses of Quran and prophetic hadiths containing common ethics or particular moral values.

Sharia links these morals to other spheres of religion, such as creed, worship, sociality, etc. It also associates them with the primary goals of Sharia and prudence in addition to the variety of its divisions.

In financial terms, Islam is like a currency backed by gold, where gold is the moral values that Islam is holding.

Hence, the given study aims to define these moral values as part of code of ethics of Islam and strengthen the conviction of the excellence, uniqueness and orderliness of this Sharia.

Keywords : *Morale; Curriculum; Values; Islam.*

1. المقدمة:

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنَّ من تمام نعم الله على عباده أن ارتضى لهم من التشريعات ما تصلح بتطبيقه أحوالهم، وما تستقيم باتباعه حياتهم، منهج قويم، وتشريع من لدن حكيم خبير، بعث لتبليغ شريعته ومنهاجه رسلاً كراماً، بان بيعتتهم الدين، وتمت برسالتهم الحجَّة لله على النَّاس، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165]؛ بلَّغوا الأمانة ولم يغيروا، أو يبدلوا، بل بذلوا جهدهم في دعوة الخلق إلى عبادة الله وحده، وإمضاء شرعه، مؤيدين بآيات الله ونصره، مطوقين بعصمة الخالق ﷺ فيما يبلغون به، قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

لقد كانت العرب أحسن الناس أخلاقاً بما بقي عندهم من الشرائع السماوية السابقة، ولكنهم ضلُّوا بالكفر عن الكثير منها، وبقيت عندهم أثارة من هذه الفضائل، فجاء الإسلام لا يهدم هذه الفضائل الخلقية، ولكن ليتبنَّى كلَّ الفضائل المعروفة وغير المعروفة لديهم، ويوازن وينسّق بينها، ويقلِّد كلَّ فضيلة المكانة اللائقة به، ضمن رسالته الكاملة الصالحة والمصلحة للحياة البشرية، ويوسّع مجال تطبيقها لكي يغطّي كلَّ نواحي الحياة الفردية والجماعية للبشر كافة، فكانت رسالته ﷺ تأكيداً على أهمية الأخلاق، وإقامتها في التعامل مع الخالق ﷻ أولاً، ثم في التعامل مع المخلوق؛ سواء أكان الإنسان وغيره من الناس، أو الإنسان ونفسه، أو الإنسان وغيره من الكائنات الأخرى، فكان قوله ﷺ: «إنَّما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»⁽¹⁾.

(1) أخرجه مالك في الموطأ (1330/5 - رقم 3357)، وأحمد في المسند (513/14 - رقم 8952)، والبخاري في الأدب المفرد (143 - رقم 273)، والحاكم في المستدرک (670/2 - رقم 4221)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (112/1 - رقم 45).

وقد امتدّت هذه الأخلاق لتشمل علاقتها كلّ نواحي الحياة؛ فهناك علاقة العقيدة بالأخلاق، وعلاقة الشريعة بالأخلاق، وعلاقة السلوك بالأخلاق، وعلاقة الضمير بالأخلاق، وإذا كان الإسلام قد جاء ليقوم ما هو معروف من أخلاق، فإنه -أيضاً- جاء بمجموعة من الفضائل تتميز بأنها أخلاق معلّلة مفهومة، ليست تحكّميّة مجردة من أيّ تفسير، أخلاق وسطية متوازنة جامعة بين الدنيا والآخرة، والروح والمادة، والعقل والقلب، والحق والواجب؛ أخلاق واقعية تراعى

حالة الإنسان؛ أخلاق تتماز بالشمولية في مجال تطبيقها؛ أخلاق لها أهمية بالغة في ارتقاء السلوك الفردي، وارتقاء القدرة المعنوية للأمم والشعوب، كما أنّ لها الأهمية البالغة كونها ميزاناً للأفعال والتروك والتفاضل. ومما لا شكّ فيه أنّ هناك محوراً وزاوية ارتكاز وبعداً أساساً يرمي الإسلام العظيم لما وراءه، إذ إنّ هناك زوايا كامنة خلف الأشياء، فالإسلام يُعتبر بمعايير الاقتصاد كالعملة المغطاة برصيد ذهبي، والرّصيد الذهبي الذي نقصده هو المعايير الأخلاقية التي يحملها، ومن هنا جاء هذا البحث ليظهر حقيقة هذه المعايير في المنهج الأخلاقي في الإسلام، ويعزز اليقين بكمال هذه الشريعة، وتفردّها، وحسن نظامها.

وقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، وتفصيل ذلك كما يلي:

تمهيد: التعريف بمصطلحات البحث.

المبحث الأول: أهمية الأخلاق في المنهج الأخلاقي الإسلامي.

المبحث الثاني: خصائص المنهج الأخلاقي في الإسلام.

المبحث الثالث: المعايير الخلقية في المنهج الأخلاقي الإسلامي.

الخاتمة.

ولنمهد للتعريف بمصطلحات البحث.

أولاً: مفهوم المعايير:

أ- في اللغة: المعايير جمع معيار، وهو العيار؛ جاء في تهذيب اللغة: (وَقَالَ اللَّيْثُ: الْعِيَارُ: مَا عَايَرَتْ بِهِ الْمَكَائِلَ؛ فَالْعِيَارُ صَحِيحٌ تَامٌ وَافٍ. تَقُولُ: عَايَرْتُ بِهِ أَيْ سَوَّيْتَهُ وَهُوَ الْعِيَارُ وَالْمَعْيَارُ. قَالَ: وَعَيَّرْتُ الدَّيْتَارَ وَهُوَ أَنْ

تلقى دِينَاراً دِينَاراً فتوازن به دِينَاراً دِينَاراً. وَكَذَلِكَ عَيِّرَتْ تَعْيِيراً إِذَا وَزَنْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا. يُقَالُ هَذَا فِي الْكِيلِ وَالْوَزْنِ.⁽¹⁾

وفي مختار الصحاح: (و"عَايَر" الْمَكَائِلَ وَالْمَوَازِينَ "عِيَارًا"، وَلَا تَقُلْ: عَيَّرَ. وَ"الْمَعْيَارُ" بِالْكَسْرِ "الْعِيَارُ").⁽²⁾

ب- في الاصطلاح: يُعرّف المعيار بالمعنى العام بأنه: المقياس المرجعي الذي تُقارن به الأشياء المادية والمعنوية والأفكار والأفعال لثبوت به، وتسوّى عليه، ويُتخذ حيالها موقف قرار للقيام بإزاءها بفعل.⁽³⁾ و"المعيار" العيار، وفي الفلسفة: نموذجٌ مُتَحَقِّقٌ أو مُتَصَوِّرٌ لما يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ، وَمِنْهُ الْعُلُومُ المعيارية، وَهِيَ الْمُنْطَقُ وَالْأَخْلَاقُ وَالْجَمَالُ وَنَحْوُهَا.⁽⁴⁾

ثانياً: مفهوم الخلق:

أ- لغةً: الخُلُقُ: هو السَّجِيَّةُ والطَّبعُ، مأخوذ من مادة: (خ ل ق) وقد جاء في معناها: قال الجوهري: (الخُلُقُ: التقدير... والخَلِيقَةُ: الطبيعة... والخَلْقَةُ بالكسر: الفطرة... والخُلُقُ: السَّجِيَّة).⁽⁵⁾ وقال ابن منظور: (الخُلُقُ هو الدِّينُ والطَّبعُ والسَّجِيَّةُ، وحقيقته: أَنَّ صُورَةَ الْإِنْسَانِ الْبَاطِنَةَ -وهي نفسه- وَأوصافها ومعانيها المختصة بما بمزلة الخُلُقِ لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها).⁽⁶⁾ وقال الفيروز آبادي: ("الخُلُقُ" التقدير... والخُلُقُ بالضم وبضمّتين: السَّجِيَّةُ والطَّبعُ والمرُوءةُ والدين).⁽⁷⁾ ب- اصطلاحاً: قال الماوردي: (الأخلاق: غرائز كامنة، تظهر بالاختيار، وتقهر بالاضطرار).⁽⁸⁾

(1) تهذيب اللغة للأزهري، (107/3).

(2) مختار الصحاح للرازي، (ص: 222).

(3) ينظر: الموسوعة العربية: www.arab-ency.com/ar

(4) المعجم الوسيط لجمع اللغة العربية، (639/2).

(5) الصحاح للجوهري، (1470/4-1471).

(6) لسان العرب لابن منظور، (86/10).

(7) القاموس المحيط للفيروز آبادي، (236/3).

(8) تسهيل النظر وتعجيل الظفر للماوردي، (ص: 5).

وقد فصل القول في معناه الغزالي فقال: (فالخلق عبارة عن هيئته في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سُميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سُميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً، وإنما قلنا إنها هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال على الدور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية؛ لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم⁽¹⁾ اهـ . وكذا قال الجرجاني وربما نقله عن الغزالي.⁽²⁾

وقال ابن عاشور: (الخلق: السجية المتمكنة في النفس، باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر، وتشمل طبائع الخير وطبائع الشر، ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يضم إليه، فيقال: خلق حسن، وفي ضده: خلق قبيح، فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخلق الحسن).⁽³⁾

وقد حاول بعض المعاصرين تلخيص وتسهيل العبارة في تعريف الأخلاق اصطلاحاً، فقال: (الخلق: صفة مستقرّة في النفس فطرية أو مكتسبة، ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة).⁽⁴⁾ ثالثاً: مفهوم المعايير الخلقية: ومما سبق يمكن تعريف المعايير الخلقية بهذا التعريف:

تلك المبادئ والمحددات السلوكية، والمقاييس، والقواعد المتعلقة بالسجايا والطباع، والمنظمة للسلوك الإنساني، والتي يحددها الوعي لتنظيم حياة الإنسان تنظيمًا خيرًا على نحو يحقق الغاية من وجوده في العالم على أكمل وجه.

ووفق هذا المفهوم أمكن تصور ثلاثة عناصر للمعايير الخلقية في الإسلام وهي:

1- الجانب المعرفي: وذلك من خلال التعرف على تلك المبادئ والمعايير، وإدراك معناها وأبعادها.

(1) إحياء علوم الدين للغزالي، (58/3).

(2) ينظر: التعريفات للجرجاني، (ص: 101).

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور، (171/19-172).

(4) الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حنيكة الميداني، (7/1).

2- الجانب الانفعالي: الذي يقتضي اختيار تلك القيم، وتقديرها، والتحمُّس لها، والاعتزاز بها، والسعادة لاختيارها وتبنيها في الحياة بحيث توجه صاحبها الوجهة التي تتسق مع ما تبنى .

3- الجانب العقدي: فالمعايير الخلقية في الإسلام ليست مرهونة بأذواق الناس وعاداتهم، ولا يحددها النمط الثقافي والحضاري السائد في المجتمع، ولكن يحددها الشرع.⁽¹⁾

رابعاً: مفهوم المنهج الأخلاقي:

وحيث إن موضوع البحث يتعلق "بالمنهج الأخلاقي" فلا بد من التعرُّج على مفهومه، والمقصود به "علم الأخلاق" بمعناه الشامل الواسع، وقد عُرِّف قديماً بأنه: (علمٌ يعرفُ به حال النفس، من حيث ماهيتها وطبيعتها وعلة وجودها وفائدتها، وما هي وظيفتها التي تؤديها، وما الفائدة من وجودها، وعن سجاياها وأمياها، وما ينقلها بسبب التعاليم عن الحياة الفطرية).⁽²⁾

وعرفه بعض المعاصرين بأنه: (مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره على نحو تحقيق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه).⁽³⁾ وعرفه بعضهم بأنه: (علم التعرف على الحقوق والواجبات).⁽⁴⁾

ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن المنهج الأخلاقي في الإسلام هو: مجموعة الصفات والقواعد الواردة في النصوص الشرعية، والتي تنظم حياة الإنسان من حيث علاقته بغيره.

2. المبحث الأول: أهمية الأخلاق في المنهج الأخلاقي الإسلامي.

أولاً: الأخلاق الحسنة امتثالٌ لأمر الله ورسوله:

تضافرت النصوص من كتاب الله ﷻ على الأمر بالتخلق بالأخلاق الحسنة، ونصت على الكثير منها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]، وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

(1) ينظر: المبادئ والقيم في التربية الإسلامية لحمد خياط، (ص: 33).

(2) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه، (ص: 16).

(3) التربية الأخلاقية الإسلامية لمقداد الجالين، (ص: 75).

(4) الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة لأسعد السحمراني، (ص: 15).

[الأعراف: 199]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6].

وكذلك نمت عن الأخلاق المذمومة ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بَنَسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 11-12]. ولما كان رسول الله ﷺ يمثل أمر الله تعالى في كل شأنه قولاً وعملاً، ويأتمر بكل أخلاق حسنة ورد الأمر بها في القرآن، وينتهي عن كل أخلاق سيئة ورد التهي عنها في القرآن؛ لذا كان خلقه القرآن، وأيضاً؛ فإن الالتزام بالأخلاق الحسنة امتثال لأمر رسول الله ﷺ: فهو الذي يأمر بها ويحض عليها، فعن أبي ذر رضى الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»⁽¹⁾.

ثانياً: الأخلاق الحسنة أحد مقومات شخصية المسلم:

فـ (الإنسان جسدٌ وروحٌ، ظاهرٌ وباطنٌ، والأخلاق الإسلامية تمثل صورة الإنسان الباطنة، والتي محلها القلب، وهذه الصورة الباطنة هي قوام شخصية الإنسان المسلم، فالإنسان لا يُقاس بطوله وعرضه، أو لونه وجماله، أو فقره وغناه، وإنما بأخلاقه وأعماله المعبرة عن هذه الأخلاق، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، ويقول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَىٰ صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»⁽²⁾،⁽³⁾.

ثالثاً: الارتباط الوثيق بين الأخلاق والدين الإسلامي عقيدةً وشرعيةً:

إن ارتباط الأخلاق بالعقيدة وثيق جداً، لذا فكثيراً ما يربط الله ﷻ بين الإيمان والعمل الصالح، الذي

(1) أخرجه الترمذي في الجامع (423/3- رقم 1987)، وأحمد في المسند (248/35- رقم 21354)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (81/1- رقم 94).

(2) أخرجه مسلم في الصحيح (1986/4- رقم 2564).

(3) الأخلاق الإسلامية لحسن السعيد مرسى، (ص: 24).

تُعَدُّ الأخلاق الحسنة أحدَ أركانها، فالعقيدة دون خُلُق شجرة لا ظلَّ لها ولا ثمرة، أما عن ارتباط الأخلاق بالشرعية؛ فإنَّ الشريعة منها عبادات، ومنها معاملات، والعبادات تنمُّر الأخلاق الحسنة ولا بدَّ، إذا ما أقامها المسلم على الوجه الأكمل، لذا قال تعالى: ﴿إِثْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45]، وأما صلة الأخلاق بالمعاملات، فإنَّ المعاملات كلّها قائمةٌ على الأخلاق الحسنة في أقوال المسلم وأفعاله، والمتأمل لتعاليم الإسلام يرى هذا واضحاً جلياً.

رابعاً: آثارها في سلوك الفرد والمجتمع:

(تظهر أهمية الأخلاق الإسلامية لما لها من أثر في سلوك الفرد، وفي سلوك المجتمع: أمّا أثرها في سلوك الفرد فلما تزرعه في نفس صاحبها من الرحمة، والصدق، والعدل، والأمانة، والحياء، والعفة، والتعاون، والتكافل، والإخلاص، والتواضع وغير ذلك من القيم والأخلاق السامية، فالأخلاق بالنسبة للفرد هي أساس الفلاح والنجاح، يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10]، ويقول ﷺ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 14-15]، والتزكية في مدلولها ومعناها: تعني: تهذيب النفس باطنًا وظاهرًا، في حر كاته وسكناته).⁽¹⁾

وأما أثرها في سلوك المجتمع كله، فالأخلاق هي الأساس لبناء المجتمعات الإنسانية إسلاميةً كانت أو غير إسلامية، يقرر ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (3)﴾ [العصر: 1-3]، فالعمل الصالح المدعّم بالتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر في مواجهة المغريات والتحديات من شأنه أن يبني مجتمعاً محصّناً، لا تنال منه عوامل التردّي والانحطاط، وليس ابتلاء الأمم والحضارات كامناً في ضعف إمكاناتها المادية أو منجزاتها العلميّة، إنما في قيمتها الخلقيّة التي تسودها وتحلّي بها⁽²⁾.

خامساً: مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية:

(إِنَّ أَيَّْ مَجْتَمَعٍ مِنَ الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَفْرَادُهُ أَنْ يَعِيشُوا مُتَفَاهِمِينَ مُتَعَاوِينَ سَعْدَاءَ مَا لَمْ تَرْتَبِطْ

(1) خلق المسلم لمحمد الغزالي، (ص: 15).

(2) ينظر: الأخلاق الإسلامية لحسن السَّعيد مرسى، (ص: 26).

بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة، ولو فرضنا احتمالاً أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى؛ فإنه لابداً لسلامة هذا المجتمع من خلقي الثقة والأمانة على أقل التقادير، فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدّى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار.

من الممكن أن تتخيل مجتمعاً من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الأخلاق كيف يكون هذا المجتمع؟! كيف تكون الثقة بالعلوم، والمعارف، والأخبار، وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق؟! كيف يكون التعايش بين الناس في أمن واستقرار، وكيف يكون التعاون بينهم في العمل ضمن بيئة مشتركة، لولا فضيلة الأمانة؟ كيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة تُنمّي لولا فضائل التآخي، والتعاون، والخبّة، والإيثار؟ كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجدٍ عظيم لولا فضيلة الشجاعة في ردّ عدوان المعتدين، وظلم الظالمين، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتي هي أحسن؟! كيف يكون الإنسان مؤهلاً لارتقاء مراتب الكمال الإنساني إذا كانت أنانيته مهيمنة عليه، صارفة له عن كلّ عطاء وتضحية وإيثار؟

لقد دلّت التجارب الإنسانية، والأحداث التاريخية، أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقيائها في سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسبٌ معه، وأن انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسبٌ معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسبٌ طرديٌّ دائماً، صاعدين وهابطين؛ وذلك لأنّ الأخلاق الفاضلة في أفراد الأمم والشعوب تمثل المعاهد الثابتة التي تعقد بها الروابط الاجتماعية، ومتى انعدمت هذه المعاهد أو انكسرت في الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكاناً لتعقد عليه، ومتى فقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة المنحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط، لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت القوى المبعثرة فيها بأساً فيما بينها، مضافاً إلى قوة عدوها، وإذا كانت الأخلاق في أفراد الأمم تمثل معاهد الترابط فيما بينهم، فإنّ النظم الإسلامية الاجتماعية تمثل الأربطة التي تشدّ المعاهد إلى المعاهد، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية، التي لا تهون ولا تستخذي.⁽¹⁾

سادساً: أهمية الأخلاق في الدعوة إلى الله ﷻ:

(1) الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حنيكة الميداني، (29/1).

(الذي يظن أن الناس يدخلون في الدين فقط؛ لأنهم يقتنعون عقلياً فقط، لا شك أنه مخطئ... كثير من الناس يدخلون في الدين؛ لأنهم يرون أن أهل هذا الدين على خلق، وأن الدعوة إلى الله عندهم أخلاق، والشواهد في هذا الباب كثيرة... فلاستقامة على الأخلاق لها أثر كبير، ونفعها بليغ، ولا أدل على ذلك مما جاء في السيرة النبوية من أن أخلاق الرسول ﷺ كانت محل إعجاب المشركين قبل البعثة، حتى شهدوا له بالصدق والأمانة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ آلِ أَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] قال رسول الله ﷺ: «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»⁽¹⁾.

وقد بدأ انعكاس الصور السلوكية الرائعة في تأثيرها في انتشار هذا الدين في بعض المناطق التي لم يصلها الفتح؛ إذ دخل في هذا الدين الخيف شعوب بكاملها لما رأوا القدوة الحسنة مرتسمة خلقاً حميداً في أشخاص مسلمين صالحين، مارسوا سلوكهم الرشيد، فكانوا كحامل مصباح ينير طريقه لنفسه بمصباحه، فيرى الآخرون ذلك الثور ويرون به، وليس أجمل منه في قلب الظلام، وبناء على ذلك الإقبال سريعاً دون دافع سوى القدوة الحسنة، فرب صفة واحدة مما يأمر بها الدين تترجم حياة على يد مسلم صالح يكون لها أثر لا يمكن مقارنته بنتائج الوعظ المباشر؛ لأن النفوس قد تنفر من الكلام الذي تتصور أن للناس به مصلحة، وأحسن من تلك الصفات التمسك بالأخلاق الحميدة التي هي أول ما يرى من الإنسان المسلم، ومن خلالها يحكم له أو عليه.⁽²⁾

سابعاً: أهمية الأخلاق في إضفاء السعادة على الأفراد والمجتمعات:

لا شك أن السعادة كل السعادة في الإيمان بالله والعمل الصالح، وعلى قدر امتثال المسلم لتعاليم الإسلام في سلوكه وأخلاقه تكون سعادته، فـ (التزام قواعد الأخلاق الإسلامية كفيل بتحقيق أكبر نسبة من السعادة للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانية، ثم لسائر الشركاء في الحياة على هذه الأرض، وذلك بطريقة بارعة جداً؛ يتم فيها التوفيق بالنسب المستطاعة بين حاجات ومطالب الفرد من جهة، وحاجات ومطالب الجماعة من جهة أخرى، ويتم فيها إعطاء كل ذي حق حقه، أو قسطاً من حقه وفق نسبة عادلة اقتضاها التوزيع العام المخفوف بالحق والعدل، فمن الواضح في هذا العنصر أن أسس الأخلاق الإسلامية لم تهمل ابتغاء سعادة الفرد الذي يمارس

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، (111/6 - رقم 4770)، ومسلم في الصحيح، (193/1 - رقم 208).

(2) موسوعة الأخلاق لخالد الخراز، (ص: 39) بتصرف.

فضائل الأخلاق ويجتنب رذائلها، ولم تهمل ابتغاء سعادة الجماعة التي تتعامل فيما بينها بفضائل الأخلاق مبتعدة عن رذائلها، وروعة الأخلاق التي أرشد إليها الإسلام تظهر فيما اشتملت عليه من التوفيق العجيب بين المطالب المختلفة للفرد من جهة، وللجماعة من جهة أخرى، وتظهر فيما تحقّقه من وحدات السعادة الجزئية في ظروف الحياة الدنيا، بقدر ما تسمح به سنن الكون الدائمة الثابتة، التي تشمل جميع العاملين، مؤمنين بالله أو كافرين، أخلصوا له النية أو لم يخلصوا⁽¹⁾.

3. المبحث الثاني: خصائص المنهج الأخلاقي في الإسلام.

تبين لنا مما تقدّم أنّ الأخلاق في الإسلام تمثل منهجاً متكاملًا، له مميزاته وخصائصه التي يتفرّد بها دون سائر المناهج والأنظمة والقوانين، ذلك أنّ القرآن كلام الله تعالى، الذي قال فيه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]، وغيره من المناهج والمبادئ كلام البشر، الموصوفين بقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

ولذا فتتلخص خصائص المنهج الأخلاقي في القرآن فيما يلي⁽²⁾:

- 1- أنّ مصدره الوحي، واستمداده من القرآن والسنة، فهو محفوظٌ من كل نقصٍ أو عيبٍ أو خلل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلُ نَا أَلْذِكْ رَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].
- 2- أنّه شاملٌ لجميع أنواع الأخلاق، وجميع جوانب الحياة، فهو مرتبطٌ بجانب العقيدة والعبادة والمعاملات ونحوها - كما تقدم - ويصدق هذا قوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي آلِ كَتَبٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38].

- 3- أنّه عامٌّ لجميع البشر، صالحٌ لكل زمانٍ ومكانٍ، ولكل فردٍ ومجتمعٍ وأمةٍ؛ لأنّه الدّين الذي ارتضاه الله للعالمين، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ بِكُمُ دِينُكُمْ﴾ [آل عمران: 3]، وقال: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ آلَ فِرْعَانَ عَلَى عَبْدٍ لَّيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

(1) الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حنيفة الميداني، (82/1).

(2) ينظر تفصيل هذه الخصائص في: نضرة النعيم، (83-81/1)، وأخلاقنا لحمد ربيع، (ص: 30-36)، ودستور الأخلاق في القرآن لحمد عبد الله دراز، (ص: 53-96).

4- أنه منهجٌ وسطيٌّ، فهو يراعى مصلحة الفرد والجماعة، ويلبي حاجات الروح والجسد والعقل، ويوازن بين طلب الآخرة وعمارة الأرض في الدنيا، وهكذا، دون تغليب لجانب على آخر، وتصور هذه الوسطية آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَبْتَغِ فِيمَا عَاتَىكَ اللَّهُ الدَّارَ الَّتِي خَيْرٌ لَّكَ وَلَا تَنْسَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَعَ الْكَاذِبِ إِلَىٰ غُنْفِكَ وَلَا تَبْسُطْ هَا كُلَّ آلٍ بِسْطٍ فَتَقْطِعَ عَدُوًّا مَلُومًا مَّحْشُورًا﴾ [الإسراء: 29].

5- أنه منهجٌ ثابت القيم، أصيل المبادئ، لا تتغير قواعده المنهجية، ولا تقبل التبديل أو الاجتهاد، ولا تخضع للمصالح الشخصية والأهواء الفردية، ومع ذلك فهو منهجٌ مرِن بما تقتضيه المصلحة الشرعية، قال تعالى: ﴿فَاقِمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].

6- أن المسؤولية فيه لها جانبان: مسؤولية شخصية، قال تعالى: ﴿... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ [الطور: 21]، ومسؤولية جماعية، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25].

7- أنه يترتب عليه جزاءٌ دنيويٌّ وأخرويٌّ، وعقابٌ في الحياتين للمخالفين، قال تعالى في جزاء الأبرار: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]، وقال سبحانه في عقاب الفجار: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 85].

8- أن الرقابة منه رقابة إلهية ربانية، فالرقيب على أداء هذه الأخلاق هو الله ﷻ، الذي قال: ﴿وَإِنْ تَجَاهَرَا بِآلٍ قَوْلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ [طه: 7]، وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: 61].

9- أنه منهجٌ واقعيٌّ، يمكن تطبيقه في حياة الناس، والعمل به دون عنق أو مشقة، ولا يطلب من البشر ما لا يطيقون، قال تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا عَآتَىٰهَا﴾ [الطلاق: 7].

10- أنه سهلٌ ميسرٌ في الجانب العملي، غايته التخفيف، ورفع الحرج عن الناس، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: 28].

1. المبحث الثالث: المعايير الخلقية في المنهج الأخلاقي في الإسلام.

لقد تقدّم بيان المقصود بالمنهج الأخلاقي وما يتضمنه هذا المصطلح من معانٍ، وتطبيقاً لذلك المعنى على ما ورد في القرآن الكريم، نجد أن هناك نصوصاً قرآنية كثيرة تضمّت ذكر صفاتٍ مهمّةٍ، وقواعدٍ ومبادئٍ ومعاييرٍ أساسيةٍ، تهدف إلى تنظيم حياة الإنسان من حيث علاقته بغيره، كما تبين هذه النصوص ارتباط المنهج الأخلاقي بالعقيدة والعبادة والمعاملات وغيرها، وتشمل أيضاً أنواع الأخلاق وبيان آثارها العملية، ونحو ذلك، وكلّ هذا تأصيلٌ لهذا المنهج الأخلاقي المتكامل، ويمكن تفصيل شيءٍ من هذه المعايير على النحو الآتي :

أولاً: جامعية النصوص الشرعية الدالة على مكارم الأخلاق:

وردت في عدة مواضع من القرآن الكريم آياتٌ جوامعٌ، تضمّت في كل موضعٍ منها بعضاً من المبادئ والصفات والقواعد المكوّنة للمنهج الأخلاقي في القرآن، من ذلك:

1- مقدمة سورة "المؤمنون" وهي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ آلُ الْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۚ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ ۚ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ۚ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمَنْ أَبَىٰ تَعْيًى ۚ وَرَأَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِمَالَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۚ وَالَّذِينَ يَرِثُونَ آلَ فِرْعَوْنَ ۚ دُونَ هُمْ ۚ فِيهَا خُلِدُوا ۚ ﴿١١﴾ [المؤمنون: 1-11]؛ فهذه الآيات تشمل صفاتٍ عديدةً تؤسّس قواعد ومبادئ تنظّم علاقة الإنسان بغيره، لتشكل في مجملها "المنهج الأخلاقي في القرآن" إذا جمعت مع مثيلاتها، وقد راعت الجوانب المختلفة من حياة الإنسان: فتضمّت في الناحية التعبدية الخصة:

أ- إقامة الصلاة وإتمامها واحفاظة عليها، مع الخشوع فيها الذي يشمل التواضع والخوف والتذلّل، ومع أن الصلاة علاقة بين العبد وربّه، لكن أدائها على الوجه الذي شرعه الله بخشوعها وأركانها وشروطها وواجباتها وسننها وآدابها يحقق قيماً أخلاقية عظيمة؛ فهي تمنع صاحبها عن فعل الفواحش، وتكفّه عن المنكرات، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]؛ كما أن أدائها

في الجماعة يحقق إحياء روح الأخوة الإسلامية، والالتزام بوقتها يغرس في النفس الحرص على الوقت والدقة في المواعيد، ونحو ذلك من الصفات الخلقية الحميدة.⁽¹⁾

ب- وتضمنت الآيات أداء الزكاة، وهي عبادة عملية، لكن لها علاقة بالجانب الاجتماعي والمالي من جهة الإحسان إلى الفقراء والمساكين، وسد حاجات المعوزين، وبالجانب الأخلاقي لما فيها تركية النفس من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال⁽²⁾، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [التوبة: 103]، إضافة إلى التربية على جملة من المكارم: كالإحسان والبذل والبر والإنفاق والرحمة والمودة والأخوة، ونبد الشح والبخل والتقتير ونحوه.

ت- وما تضمنته الآيات أيضاً في الجانب الاجتماعي لتنظيم علاقات الناس: أداء الأمانات، وحفظ العهود والوفاء بالوعود، وفي الجانب الشخصي: الإعراض عن اللغو بجميع صورته، والمحافظة على العفاف بحفظ الفروج ونحوه.

وهكذا ترسم الآيات منهجاً أخلاقياً فريداً، يشمل تنظيم جوانب متعددة من حياة الإنسان وعلاقته

بغيره.

2- ومن الآيات المشابهة أيضاً: ما جاء في صفات عباد الرحمن في آخر سورة الفرقان، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 63-72]، فهذه الآيات الكريمات تذكر جملة من الصفات والمبادئ

(1) ينظر: أخلاقنا في الميزان لفاطمة نصيف، (ص: 39-40).

(2) ينظر: تفسير السعدي، (3/346).

الأخلاقية، التي تنظم علاقة المسلم بغيره، منها⁽¹⁾: وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده؛ أخذاً من قوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، ومنها: وصفهم بالحلم والصبر، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزانة العقل؛ أخذاً من قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، ومنها: العدل والقصد والتوازن في قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، ومنها: حفظ النفوس والأعراض مع العفاف في قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ومنها: اجتناب كل موقع ومجلس مشتمل على قول أو فعل محرّم، كالغيبة والنميمة والكذب والجدال بالباطل والسب والقذف والاستهزاء وشرب الخمر وشهادة الزور، وغير ذلك، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فمن باب أولى أن لا يقولوه ولا يفعلوه ابتداءً، بل إنهم يزعمون أنفسهم ويكرمونها عن الخوض في اللغو الذي لا إثم فيه أيضاً، لما فيه من سفه ونقص للإنسانية وضعف في المروءة: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾، إنه منهج أخلاقي عجيّب متكامل، تسطره هذه النصوص القرآنية المباركة، لتوصل تلك المبادئ والقواعد الأصلية.

3- ومن الآيات التي تضمنت بعض تلك المعاني والصفات، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج: 19-35]، ولا حاجة لإعادة التعليقات عليها، فقد اشتملت على مجمل الصفات المذكورة سابقاً.

وهناك جملة من الموضوعات القرآنية من الآيات الجامعة المشابهة لما ذكر، إضافة إلى الآيات المفردة في ذكر خلق معين، أو مبدأ، أو قاعدة أخلاقية، وهي كثيرة جداً، منها على سبيل المثال:

1- آيات "الصبر"، وقد تكرر بمعناه الاصطلاحي في أكثر من (90) موضعاً.⁽²⁾

(1) ما سيأتي من تعليق على الآيات مقتبس بتصرف عن تفسير السعدي، (450/3-453).

(2) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن محمد فؤاد عبد الباقي، (ص: 399-401).

2- آيات "الإحسان"، وقد ذكر بمعناه الخاص المتعلق بالآخرين وهو: (الإنعام على الغير) ⁽¹⁾ في (67) موضعاً. ⁽²⁾

3- ومثلها: آيات البر والعدل والصدق والعفو والجود والعفاف ونحوها. ⁽³⁾

ثانياً: القدوة والأسوة الشاملة في هديه ﷺ وخلقه:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]: فهذه الآية الوحيدة التي جاء فيها لفظ "الخُلُق" بمعنى السَّجِيَّة أو الهيئة الراسخة في النَّفْس، التي تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، وهو تعريفه في اصطلاح العلماء كما تقدم، وهي آية عظيمةً بليغةً، تحمل شهادةً وتزكيةً وتكريماً لخلقِ الرَّسُولِ ﷺ، وتتضمن في طياتها هديه وسيرته وسمته وشمائله وصفاته، أي: تتضمن المنهج الأخلاقي المتكامل لهذا الدِّين القويم، خاصة وأنَّ هذا "الخُلُق العظيم" هو القرآن الكريم، كما بينت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين سُئِلت عن خلقه، فأجابت: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ». ⁽⁴⁾

إذاً؛ فأخلاق النَّبِيِّ ﷺ كانت مقتبسةً من مشكاة القرآن، فكان كلامه مطابقاً للقرآن، تفصيلاً له وتبييناً، وعلومه علومُ القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، وكذا رغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه، والجهاد في إقامته. ⁽⁵⁾

فهذه الآية وحدها تؤصِّل المنهج الأخلاقي، فكلُّ خلقٍ محمودٍ جاء في القرآن فهو من الخلق العظيم الذي كان عليه النَّبِيُّ ﷺ، والذي أكدّه بقوله: «إِنَّمَا بَعَثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». ⁽⁶⁾

(1) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني، (ص: 236).

(2) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لـ محمد فؤاد عبد الباقي، (ص: 202-205).

(3) انظر في ذلك المعجم المفهرس لمواضيع القرآن لـ محمد نايف معروف.

(4) أخرجه مسلم في الصحيح، (396/2 - رقم 746)..

(5) ينظر: بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية لـ محمد يسري السيد، (509/4 - 510).

(6) مضى تخريجه صفحة 3 من هذا البحث.

ثالثاً: ارتباط المنهج الأخلاقي في الإسلام بجميع الأصول التشريعية:

مما سبق يتبين لنا مدى ارتباط المنهج الأخلاقي في القرآن، بجانب العقيدة والعبادة والمعاملات، والعلاقات الأسرية والاجتماعية والدولية، والأحوال الشخصية وغيرها، فالعنصر الأخلاقي سمة بارزة في جميع تلك الجوانب، تقوم عليه أصولها التشريعية والتهذيبية على السواء.⁽¹⁾

وأمثلة هذا في القرآن والسنة لا تحصر، فكم آية قرنت بين التوحيد والإيمان من جهة، وبين أنواع من الأخلاق من جهة أخرى؛ كالأحسان في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36]، وكالبر في قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

وهناك آيات وضحت الصلة بين العبادة والأخلاق، كما تقدم في الكلام عن الصلاة والزكاة، ومن ذلك أيضاً: ارتباط الصيام بالتقوى التي هي جماع الأخلاق الفاضلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، ومثله في الحج، وعلاقته بالتقوى، وبيان أثر تجنب الأخلاق السيئة في قبول الحج، ومغفرة الذنوب: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197].

وهكذا سائر العبادات وكذا المعاملات والعلاقات، ترتبط بالمنهج الأخلاقي في الإسلام، وتنطلق من قواعده وأسسها.⁽²⁾

(1) ينظر: أخلاقنا في الميزان لفاطمة عمر نصيف، (ص: 33).

(2) ينظر مزيداً من التفصيل في: أخلاقنا محمد جوهري، (ص: 37-48)، وخلق المسلم لحمد الغزالي، (ص: 9-13).

رابعاً: ارتباط المنهج الأخلاقي في الإسلام بمقاصد الشريعة:

إنَّ مما يؤصل المنهج الأخلاقي في الإسلام ارتباطه بمقاصد الشريعة، وبحفظ الضرورات الخمس التي اجتمعت الشرائع والرسالات عليها، وهي "الدين والنفس والعقل والنسل والمال"؛ ذلك أنَّ جميع الشرائع جاءت بمكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، مع اختلافها في الفروع والأحكام، كما قال تعالى: ﴿... لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾ [المائدة: 48].

وإذا تأملنا الآيات التي وردت في حفظ تلك الضرورات نجد أنها تحفظ أنواعاً من الخلق القويم، وتحرم أخلاقاً مذمومةً قبيحةً، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33]، فتحريم الفواحش والنهي عن الإثم والبغي والظلم فيه حفظ لتلك الضرورات، مع حفظ الأخلاق وصيانتها.

ومما يؤكد هذا -أيضاً- أنَّ أعظم ما جاءت الشرائع بحفظه هو الدين، فقد أجمعت رسالات الله على الأمر بالتوحيد، وتحريم الشرك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: 36]، وهذا التوحيد مبنيٌّ على أنواعٍ من الأخلاق كالصدق في عبادة الله، والعدل والإحسان، والتقوى، ومرتبطة -أيضاً- بتحريم الفحشاء والمنكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

خامساً: تنوع الأخلاق في المنهج الأخلاقي الإسلامي:

إنَّ مما يؤصل المنهج الأخلاقي في الإسلام تنوع الأخلاق التي تضمنها، فهي أصناف وأقسام، وبيان ذلك

فيما يلي:

1- أخلاق فردية -شخصية-: وهي الأخلاق المتعلقة بالفرد، ونفعها لازم له ويعود عليه خاصةً، كالإخلاص، والاستقامة، والعفة، والحلم، والحياء، والصدق، والصبر، والتواضع، والآيات في هذه الأخلاق كثيرة معلومة.

2- أخلاق جماعية - اجتماعية: وهي المتعلقة بالآخرين، ويتعدى نفعها إليهم، كالوفاء بالعهد، والإحسان إلى الوالدين، والعطف على الفقراء، والعفو عن المسيء، وكظم الغيظ، والأخوة، والجود والكرم، ونحوها، وكذلك؛ فإن الآيات الدالة عليها كثيرة معلومة.

وقد فصل بعضهم في التّقسيم، فجعل الأخلاق خمسة أنواع⁽¹⁾، وهي:

1- الأخلاق الفردية: مثل: العفة والاستقامة والصدق ونحوها.

2- الأخلاق الأسرية: مثل: الإحسان إلى الوالدين، ومعاشرة الزوجة بالمعروف، وصلة الرحم، ونحوها.

3- الأخلاق الاجتماعية: مثل: أداء الأمانة، والوفاء بالوعد، وإصلاح ذات البين، والإحسان إلى الفقراء، ونحوها.

4- أخلاق الدولة: مثل: الشورى، والعدالة، والوفاء بالمعاهدات، ونحوها.

5- الأخلاق الدّينية: مثل: طاعة الله وشكره، والرضا بقضائه وقدره، ومحبة والخوف منه، والتوكل عليه، ونحوها.

وأدلة هذه الأنواع في القرآن معروفة أيضاً، وقد تقدم ذكر بعضها.
سادساً: مبدأ الفطرية:

الأخلاق الإسلامية تتلائم مع الفطرة الإنسانية السليمة التي فطر الله الناس عليها⁽²⁾، فالأخلاق تنقسم إلى قسمين:

أ- أخلاق فطرية: تظهر في الإنسان من أول حياته وبداية نشأته، كما قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»⁽³⁾، أي على فطرة الحق والإيمان، والدّين الإسلامي لم يأت لنسخ هذه الفطرة الطبيعية، أو عزل سلطتها، بل لتثبيت دعائمها وتصديقها وتهذيبها.

(1) ينظر: دستور الأخلاق في القرآن لعبدالله دراز، (ص: 689-771).

(2) ينظر الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني، (1/178-189).

(3) أخرجه مسلم في الصحيح، (4/2047- رقم 2658).

ب- أخلاقٌ مكتسبةٌ من البيئة الطبيعية أو الاجتماعية أو توالي الخبرات والتجارب، ولاكتساب خلقٍ ما لابدٌ من وجود هذا الاستعداد الفطري لاكتسابه، وهذا يتفاوت من إنسانٍ لآخر، فالتناس كما تتفاوت حظوظهم من الذكاء الفطري والصفات الجسدية، فكَذلك تتفاوت طبائعهم الخلقية.

ومما يدلُّ على وجود الفروق في الهبات الفطرية الخلقية: قوله ﷺ: «التَّاس معادن، كمعادن الفضة والذهب، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا»⁽¹⁾، ففي هذا الحديث يثبت الرسول ﷺ وجود فروق في الهبات الفطرية الخلقية، وأنَّ خيار الناس في تكوينهم الفطري، هم أكرمهم خلقاً، وأنَّ هذا التكوين الفطريُّ يرافق الإنسان ويصاحبه في كلِّ أحواله، فأحسانهم أخلاقاً في المجتمع الجاهلي، هم خيرهم معدناً، وأفضلهم سلوكاً، فإذا علَّم وهُدب وتفقه في الدين، امتاز منهم من امتاز سابقاً؛ لأنَّ الإيمان والعلم والتهذيب تمد من كان ذا خلق حسن في أصل فطرته، فتزيده حسن خلقٍ واستقامة سلوك وفضل.⁽²⁾

وكان هذا حال صحابة النَّبيِّ ﷺ، فمن أسلم من كبارهم وكرامهم يوم الفتح، كأبي سفيان وحكيم بن حزام والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين - وكانوا جميعاً من المعروفين بالفضل والصدق في البذل والتضحية كما أثر عنهم في سيرهم -، كان لهم في الإسلام مكانةٌ عاليةٌ، وتحوَّلت عداوتهم للإسلام وكراهيتهم له إلى جهادٍ ونصرةٍ للحقِّ وتضحيةٍ في سبيل الله تعالى.

ومن شواهد موافقة الأخلاق الإسلامية للفطرة، ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في مبايعة النبي ﷺ للنساء، فقد روت أنَّ فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها جاءت تباع النَّبيُّ ﷺ، فأخذ عليها أن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: 1].

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، (4/122 - رقم 3353)، ومسلم في الصحيح، (4/2031 - رقم 2638).

(2) ينظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني، (1/179)، ومن الممكن تقسيم العوامل المؤثرة في الخلق إلى قسمين هما: الوراثة والبيئة، فالمرء يخلق وعنده استعداد للخير والشر، وأخلاقه تتغير على حسب ما يؤثر فيها من عوامل الوراثة والبيئة، ينظر: التربية الأخلاقية الإسلامية لمقداد يالين، (ص: 32).

[12] قالت: فوضعت يدها على رأسها حياءً، فأعجب النبي ﷺ ما رأى منها ⁽¹⁾، فقد كانت الفطرة العربية السليمة النقية تصون الأعراض، وتحافظ على الحرمات والمقدسات، وتستنكر وترفض خدشها والمساس بها. والحاسة الأخلاقية كالحواس الأخرى المغروسة في الطبيعة البشرية، يستحسن الإنسان بواسطتها بعض الأفعال، ويستقبح البعض الآخر، وهذا مما يميز الإنسان عن الحيوان ⁽²⁾. وهذه الحاسة عميقة وراسخة في فطرة الإنسان، ولم يغفلها الإسلام بل عمل على تنظيمها، وتوجيهها، ووضع المقاييس والمعايير الثابتة لها، فلا تقبل وتتبع الهوى والمصالح الشخصية، إنما ترجع إلى معايير مطردة، بعيدة عن التأثير بالأهواء، وهي الموازين الإسلامية التي جاءت لتنمية الفاضل من هذه الأخلاق، ولتوجيه وتعديل المنحرف منها.

وفطرية الأخلاق دليل على إمكانية تقويمها وتهذيبها لتكون أخلاقاً فاضلةً حميدةً، ولكن يشترط لذلك سلامة هذه الفطرة وصحتها، فالفطرة قد تفسد أحياناً -أو غالباً- إذا تعاقبت عليها عوامل الفساد، فلا تتقبل الأخلاق الفاضلة، بل قد تنكرها ⁽³⁾، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (والفعل إذا صادف محلاً قابلاً تم، وإلا لم يتم، والعلم بالمحسوب يورث طلبه، والعلم بالمكروه يورث تركه... وهذا كله إنما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها، وأما مع فسادها فقد يحس الإنسان باللذيق فلا يجد له لذة بل يؤلمه، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة) ⁽⁴⁾.

سابعاً: اتساع دائرة الأخلاق في الإسلام :

فهي تسع الحياة وتشملها بكل جوانبها، وكافة مجالاتها، ولم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية: روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو جماعية، إلا رسمت لها المنهج الأمثل للسلوك الرفيع.

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند، (95/42- رقم 25175).

(2) جوانب التربية الإسلامية الأساسية لمقداد يالين، (ص: 292).

(3) فتنكر المعروف وتتقبل المنكر، كما وصف النبي ﷺ حال قلب من تعرض عليه الفتن ويقبلها فيصبح: «أسود مرباداً كالكوثر مجحياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه». أخرجه مسلم في الصحيح، (123/1- رقم 144).

(4) كتاب الإيمان لابن تيمية، (ص: 22) بتصرف.

ولا يوجد في الإسلام عملٌ واحدٌ يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق، فالصلاة لها أخلاق مثل: الخشوع، والكلام له أخلاق: كالإعراض عن اللغو، والنكاح له أخلاق مثل: الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين من أخلاقه: الوفاء والأمانة ورعاية العهد، والحياة الاجتماعية لها أخلاق: كالتعاون على الخير، والغضب له أخلاق: كالصفح والعفو، وهكذا لا يوجد شيءٌ واحدٌ ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنه يدلُّ على مدى نفوذ أخلاقيات الإسلام في الحياة الإنسانية.⁽¹⁾

ومن اتساع دائرة الأخلاق أن المسلم لا ينفك عن التحلي بالأخلاق الفاضلة الحميدة في كلِّ أحواله وأوقاته، في سلّمه وحرّبه، فحسن المعاملة أثناء الحرب ولين الجانب والرأفة والتسامح مع الأعداء المغلوبين والرحمة بالنساء والأطفال والشيوخ، والوفاء بالعهود، هذه الصفات وغيرها، لم تتحقق إلّا في الجيوش الإسلامية التي فتحت قلوب الناس بالنور الذي تحمله، وبالأخلاق التي تلتزم بها قبل فتح البلاد بالسيف.⁽²⁾

ومن خصائص التكليف الأخلاقي أنه شاملٌ، ويتجلّى طابع الشمول في النّظام والمبدأ الأخلاقي الإسلامي، لا لأنَّ مجموع أوامره يتوجّه إلى الإنسانية جمعاء فحسب، بل لأنَّ قاعدة الفضيلة عامة، ويجب على كلِّ فردٍ أن يطبّقها على نسقٍ واحدٍ، سواء أكان تطبيقه لها على نفسه أم على الآخرين، أو كان هذا التطبيق على أقربائه أم على البعداء، على الأغنياء أم على الفقراء، وسواء أكانوا داخل الجماعة أم خارجها، على الأصدقاء أم على الأعداء، وهكذا كان قدوتنا رسول الله ﷺ في أدبه وتعامله مع القريب والبعيد، في سعة صدره وحلمه وعفوه، وفي تواضعه للفقير والمسكين.

والخلاصة: أن الإسلام قد غني بتأصيل المنهج الأخلاقي، من خلال تلك الآيات والأحاديث الجامعة لمكارم الأخلاق، والآيات والأحاديث المفردة الخاصة ببعضها، وارتباط الأخلاق الإسلامية بالجوانب العقدية والعبادية والاجتماعية وغيرها، وارتباطها بالمقاصد الشرعية والحكم المرعية، إضافة إلى كثرة أقسامها وتعدّد أنواعها.

4. الخاتمة:

(1) ينظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني، (1/55).

(2) من روائع حضارتنا لمصطفى السباعي، (ص: 136-158).

وبعد هذه الجولة اليسيرة في أفنان الأخلاق الإسلامية، وتلمس نظرات خاصة بالمنهج الخلقي في الإسلام، وبيان أهم المعايير التي يبني عليها صرح المنهج الخلقي في الإسلام، فإنه يمكن تلخيص هذه النظرات فيما يلي:

- 1- إنَّ الخلق يأتي بمعنى السَّجِّية والطَّبع، وهو هيئة راسخة في النفس تحمل صاحبها على التزام محامد الأمور ومكارمها، والتخلّي عن سفاسفها ورذيلها، وأن المعايير الخلقية هي عبارة عن الأسس والقواعد والقيم التي تضبط المنهج الخلقي وفق النظرة الشرعية.
 - 2- إنَّ الإسلام قد عني بالجانب الأخلاقي عناية مميزة، وله في ذلك منهج أصيل يلمسه من تدبر آيات الأخلاق في القرآن الكريم والسُّنة النبوية.
 - 3- إنَّ المنهج الأخلاقي في الإسلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجانب العقيدة والعبادة والمعاملات والعلاقات الاجتماعية والدولية وغيرها، إضافة إلى ارتباطه بمقاصد الشريعة وحفظ الضرورات الخمس، ذلك أن العنصر الأخلاقي سمة بارزة في كل تلك الجوانب .
 - 4- للمنهج الأخلاقي في الإسلام خصائص تفرّد بها، من حيث الربانية والشمول والوسطية، والثبات واليسر والواقعية، وترتب الجزاء الدنيوي والأخروي عليه.
- فالحمد لله الذي فضّلنا بالإسلام، وأكرمنا ببعثة خير الأنام، وأعلى شأن هذه الأمة على سائر الأمم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



5. قائمة المصادر والمراجع:

- (1) إحياء علوم الدين، الغزالي أبو حامد محمد بن محمد، ط 1، سنة 1406هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (2) الأخلاق الإسلامية، مرسى حسن السعيد، ط 2، سنة الطبع: 1427هـ، مكتبة المتنبي، السعودية.
- (3) الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، السحمراني أسعد، ط 1، سنة 1988م، دار النفائس، الأردن.
- (4) الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، الميداني عبدالرحمن حسن حنكة، سنة 1988م، دار النفائس، بيروت، لبنان.

- (5) أخلاقنا في الميزان، نصيف فاطمة عمر، ط 1، سنة 1422هـ، دار الحمدي، جدة، السعودية.
- (6) أخلاقنا، جوهري محمد ربيع، ط 4، سنة 1420هـ، مكتبة دار الفجر الإسلامية، المدينة المنورة.
- (7) الأدب المفرد، البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري، ط 1، 1419هـ/1998م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- (8) بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية، جمع: محمد يسري السيد، ط 1، سنة 1414هـ، دار ابن الجوزي، الرياض، السعودية.
- (9) التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، ابن عاشور محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، سنة النشر 1984 هـ، الدار التونسية للنشر، تونس.
- (10) التربية الأخلاقية الإسلامية، يالجن مقداد، ط 1، سنة 1977م، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- (11) تسهيل النظر وتعجيل الظفر، الماوردي أبو الحسن لي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، تحقيق: محي الدين السرحان وحسن الساعاتي، سنة 1953م، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
- (12) التعريفات، الجرجاني علي بن محمد بن علي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط 1، سنة 1405هـ ظن دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- (13) تهذيب الأخلاق، ابن مسكويه، سنة النشر 1401هـ، دار الكتب العربية، بيروت، لبنان.
- (14) تهذيب اللغة، الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد، تحقيق: محمد عوض مرعب، سنة 2001م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (15) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السَّعدي عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط 1، 1420هـ/2000م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- (16) الجامع الكبير، الترمذي محمد بن عيسى بن سورة أبو عيسى، تحقيق: بشار عواد معروف، ط 1، سنة 1998م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- (17) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه المسمى: صحيح البخاري، البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط 1، سنة 1422هـ، دار المنهاج، دار طوق النجاة، الرياض.
- (18) خلق المسلم، الغزالي محمد، سنة 1400هـ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.
- (19) دستور الأخلاق في القرآن، دراز محمد عبد الله، ط 4، سنة 1405هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- (20) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الألباني أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، ط 1، ج 1 - 4: 1415هـ/1995م؛ ج 6: 1416هـ/1996م؛ ج 7: 1422هـ/2002م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية.
- (21) الصحاح في اللغة، الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد الفراء، د. ت، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (22) صحيح الجامع الصغير وزياداته، الألباني محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، ط 1، (د.ت)، المكتب الإسلامي،

بيروت، لبنان.

- (23) القاموس المحيط، الفيروز آبادي محمد الدين محمد بن يعقوب، تحقيق مكتب التراث بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، 1426هـ/2005م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- (24) كتاب الإيمان، ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، ط 5، 1416هـ/1996م، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن.
- (25) لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم، ط3، سنة 1414هـ، دار صادر، بيروت، لبنان.
- (26) المبادئ والقيم في التربية الإسلامية، خياط محمد جميل، ط 1، سنة 1416م، مطابع جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية.
- (27) مختار الصحاح، الرازي محمد بن أبي بكر عبد القادر، دن، د. ت، القاهرة.
- (28) المستدرك على الصحيحين، الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، 1411هـ/1990م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (29) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ المسمى: صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د. ط)، (د. ت)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (30) المسند، ابن حنبل أحمد بن محمد ابن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون؛ إشراف: د عبد الله بن عبد الحسن التركي، ط1، سنة 1421هـ/2001م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- (31) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، سنة 1364م، دار الكتب المصرية، مصر.
- (32) المعجم المفهرس لمواضيع القرآن الكريم، معروف محمد نايف، ط 1، سنة 1420هـ، دار النفائس، الأردن.
- (33) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، سنة النشر 1960م، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، مصر.
- (34) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، سنة 1412هـ، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت.
- (35) من روائع حضارتنا، السباعي مصطفى، ط 1، 1420هـ/1999م، دار الوراق للنشر والتوزيع - المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، لبنان.
- (36) موسوعة الأخلاق، الخراز خالد بن جمعة، ط 1، 1430هـ/2009م، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، الكويت.
- (37) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، إعداد: مجموعة من المختصين، بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، ط 1، سنة 1418هـ دار الوسيلة، جدة، السعودية.
- (38) الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، ط 1، 1425 هـ/2004 م، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات.
- (39) الموسوعة العربية : www.arab-ency.com/ar

